"شرابنل" على هامش بغداد

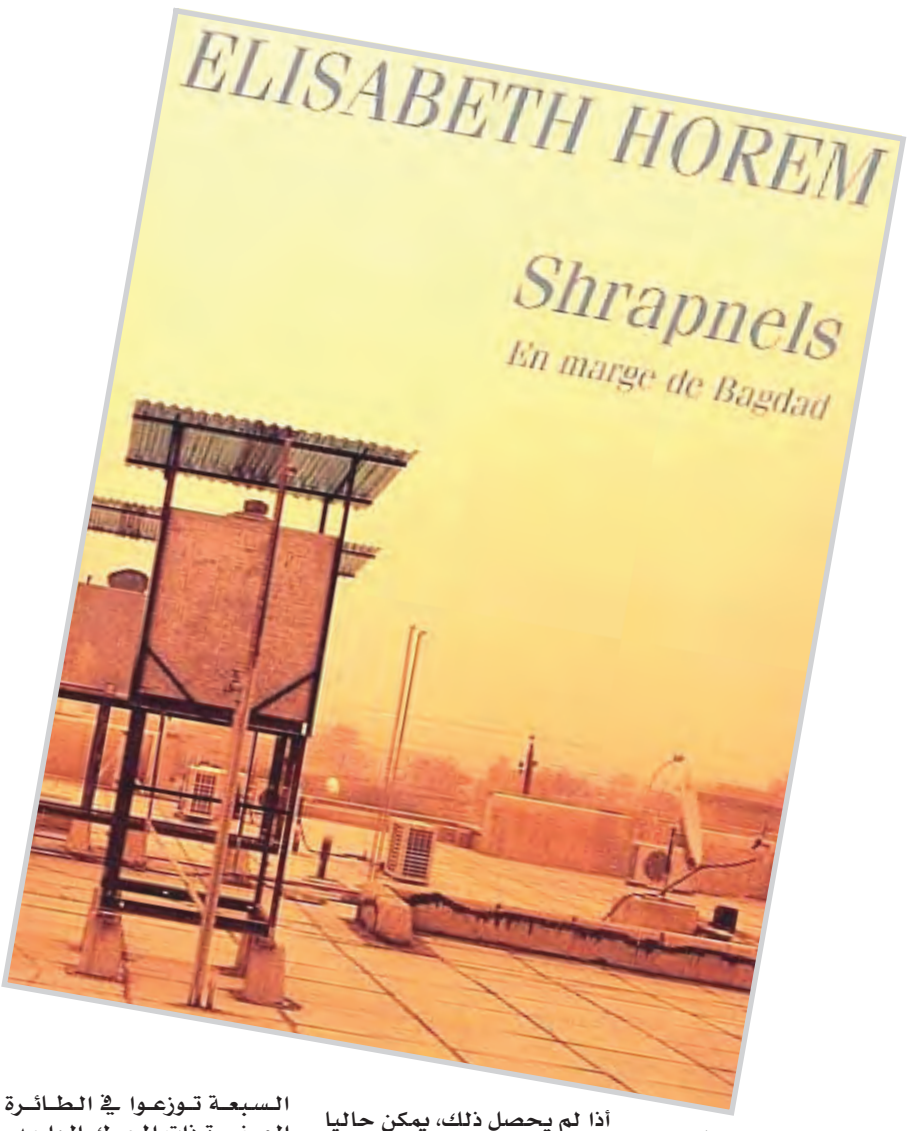

ترجمة سعيد فرحان

١-

سبعة مسافرين متوحدين، ينتظرون في البهو شبه الفارغ في مطار صغير. لا يعرفون بعضهم ويتجنبون التعارف. جلسوا متباعدين، تفصلهم كراسٍ فارغة.

الحضور في هذا البهو ليس كثيفا، بضعة أشخاص، هناك، ينتظرون طائرة أخرى ستحلق قبل أو بعد طائرتهم، غير أن الإتجاه هو نفسه. يتفادون النظر إلى بعضهم، نظراتهم تنزلق انزلاقا، يتظاهرون بالتحديق في الفراغ، ولكنهم ينتظرون مجيء الموظفة الشابة التي دققت قبل حين وجود أسمائهم على القائمة وما إذا كانوا قد دفعوا أجرة التذكرة.

أذا لم يحصل ذلك، يمكن حاليا دفع ثمن التذكرة وأجرة الوزن الفائض عما هو مسموح به (هذه النقطة لا تخص أحدا غيرها).

خمسة رجال وامرأتان في بهو المطار شبه الفارغ. الرجال عابسون، كل منهم يملك حاسوبا وحقيبة يدوية ممتلئة. حقائبهم قليلة. ربما سيرحلون عن المدينة غدا أو بعد غد. المرأة الأخرى، شابة. ابتعدت عن بقية الجمع وفي أذنيها سماعتان. يبدو عليها انها هانئة. ربما ستلتقي هي أيضا الرجل الذي افترقت عنه زمنا بسبب الأحداث.

خلف الكوة الزجاجية، على المدرج، لمحت الطائرة التي ستقلهم. هناك طائرات أخرى تحمل شعار احدى المنظمات الإنسانية، وهليكوبتر عسكري. فوق عمان تطفو غيوم واطئة ضخمة بحواف مضببة. الركاب السبعة توزعوا في الطائرة الصغيرة ذات المحرك الواحد. حسبت ثمانية عشر مقعدا، تسعة في كل من جانبي الممر الضيق. الحقائب في المؤخرة. من مكانها، يمكنها أن ترى جميع حركات القبطانين.

ليست هنالك من مضيفة ولا حتى تواليت في هذه الطائرة. خلف مقعديهما، وضع القبطانان حاوية مبردة، تعلوها قناني ماء.

اختفت الغيوم بسرعة. الصحراء مرقعة ببقع غامقة أو فاتحة وبآثار بناء مثل ندبات. يمكن رؤية تعرجات نهرية مرقطة بأشرطة مختلفة الألوان: حقول مزروعة في المواقع القديمة التي ظلت تحتفظ بالرطوبة، تبدو من الجو و كأنها ثعبان مجعد.

تتعجب هي من الآثار التي تركها البشر في هذه الصحراء. منشآت عسكرية دون شك. الأبنية المصفوفة مثل قبور في مقبرة. لا تستطيع التعرف على الآثار الأخرى: اشكال هنسية، مستطيلات مرسومة على الأرض. وهذه الدوائر المختلفة الأحجام، هناك. الطبيعة تصنع هي الأخرى آثارا غريبة، يبدو من الطائرة وكأنها تنصاع لغرض مرسوم حتى يصعب التمييز بين ما خلفه البشر وما تركته لا أبالية الصحراء الهائلة. دروب تحفر أخاديد باهتة في الأرض التي تبدو الآن مخملية، كما لو كانت مغطاة بطبقة ناعمة من غبار الطابوق. تجد مؤثرا مشهد هذه الآثار القادمة من بقاع مختلفة من الصحراء والمتجهة إلى... إلى أين بالضبط؟ ذلك لأنها لا تبدو من الطائرة سوى نقطة داكنة تتفرع منها هذه الدروب، تشبه شكل مفصل، أو أثرا لموضع خانق. ربما كانت نبع ماء في الأفق، استراحة في الطريق، منها يواصل المرء طريقا لا يشبه الطرق. يمكن القول انه إتجاه حدد في هذه الصحراء التي تبدو بلا نهاية والتي يمكن لركاب الطائرة رؤية حدودها. تحلق الطائرة فوق طريق مستقيم، مرئي. ترى من بعيد سيارات صغيرة محدودة العدد، تسير بتؤدة، بعضها أكبر من الأخريات: مثل جعل ودعسوقات.

ثم تزداد المناطق المزروعة. الصحراء تنسحب وتترك المكان للنشاط البشري. من هنا، يبدو البلد خصبا، مزدهرا، لا يشي بأي نوع من أنواع العنف.

على يسار الطائرة تتضخم بقعة غامقة كبيرة يخرج منها نهر متعرج يشبه الحبل السري. يحلقون فوق بحيرات ومساحات محببة لها لون المعدن، قنوات تأتلق تحت الشمس في مسار الطائرة ثم تنطفىء.

الطائرة تحافظ على ارتفاعها فوق المطار، خمسة عشر ألف قدم، حين لمحت عجلات الهبوط تنفتح.

تبدأ هبوطها بشكل حلزوني، واسع في البدء. المدرج تحتهم يدور على نفسه، ثم تضيق دائرة الحلزون. الركاب الذين يخشون الطائرة يقبضون على المساند. الهواء أصبح ثقيلا وكأنه إشتق كثافته من الماء، يتصلب كما لو كانوا يمارسون الغطس. يدور المدرج بسرعة. ضجة المحركات تصم الآذان، بحيث ان مجرد النظر من كوة الطائرة سيبعث على الغثيان.

تلمح مسبحا أزرق كالوشم، محاطا بقصور وكأنها تطفو فوق الماء. يصبح جناح الطائرة عموديا، وهو يتجه نحو المدرج مثل هدف. المدينة كلها تدور مثل عجينة كثيفة خلطت في دنّ هائل حيث امتزجت الوان التراب، اليشم، التيتان، الدهنج.

كلما واصلت الطائرة الهبوط، تتضح صورة القصور التي يبدو بعضها غير مكتمل. ذكرها ذلك ببعض رسوم كتب الأطفال، المزينة بأعمدة وزقورات، يظهر فيها علماء تنجيم بثيابهم الطويلة المرصعة بالأهلّة وهم يرفعون لحاهم المستدقة لسماء مرصعة بالنجوم.

هذه الصروح التي بناها في الماضي ديكتاتور متعاظم، تعطي المدينة طابعا خياليا، يتطابق، رغم كل شيء، مع تلك الأحلام التي يولّدها هذا الأسم: بغداد.

إستدارات ضيقة، خلالها يهيمن شعور بأن جناح الطائرة الذي أقترب من المدرج سيصطدم بالأرض. يمكن رؤية الإنحباس على الوجوه، ومن ثم لا شيء.

بعد دورة أخيرة لامست الطائرة الأرض بهدوء. قنينة مائها عندما فتحتها أصدرت صوتا: بسشت.

صعد جنود داخل الطائرة، رافقوا الركاب حتى المدرج الباهر، ومن ثم في الظل الخانق للعنابر التي خزنت فيها بضاعة تبدو كأنها منسية هنا.

عنبر بعد عنبر، يبدو الجنود وكأنهم يركضون. لا تستطيع اللحاق بهم.

تقدم جواز سفرها الذي يحمل فيزا عراقية حصلت عليها في الأيام الأخيرة للحرب، ولم تعد لها ضرورة. جندي خلاسي يتفحص الجواز، يستنسخه، ياخذون بصمة أصابعها ويتركونها تعبر الحواجز. خمسة أشهر من الفراق وها (هو) الآن هنا، ينتظرها.

٢-

لطريق المطار سمعة سيئة، فهو محاط في أماكن عديدة بسور من قواطع كونكريتية مرصوفة الواحدة تلو الأخرى. هذه الحواجز الكونكريتية التي نراها أيضا في البلدان المجاورة، توفر حماية جزئية ضد (هم).

هؤلاء الذين على طول الطريق، وبالأخص هذا الطريق، يرمون قنابل يدوية لتوقف السيارات ، ثم يهاجمونها.

حواجز تفتيش، اسوار من أكياس الرمل، جدران كونكريتية تقود عبر ممرات متعرجة إلى فوهة مدفع دبابة. الراديو يصر. السير في هذا الطريق يتم عبر سيارتين تسيران سوية. ترى نخيلا وجدرانا طينية. تشعر بأنها قد رأت هذا المشهد من قبل. ربما كانت الذكريات التي تحتفظ بها عن بلدان بنخيل حيث الريح الحارة تنثر غيوما من الغبار الأصفر. إلا إذا كان هذا انطباعاً لمشاهد رأتها للحرب الأخيرة والتي نقلتها شاشات وجرائد العالم.

تتعرف أو يخيل لها إنها تعرفت على صروح لمحتها عبر الطائرة، تكشف المغالاة ذاتها: الجامع الأكبر في العالم، ورشة هائلة غير مكتملة، سيفان هائلان يتعانقان، ترفعهما يدان ضخمتان من البرونز، قصور غير مكتملة أو شبه مهدمة، قصور أخرى مكتملة تحدسها عبر الأسيجة. مدينة واسعة بطراز هجين، شرقي و"إشتراكي" في الوقت نفسه. مدينة لن تتعرف عليها حقا.

وهي تعرف منذ البدء بأنها لن تتمكن من الخروج إلا نادرا، لا لوحدها ولا بحرية، إنما ستظل محكومة بالبقاء على هامش هذه المدينة.

٣-

هدوء المساء تتخلله من حين لآخر الاطلاقات النارية. يسمع صوت شبان يضحكون في الشارع من الجهة الأخرى للبوابة. الشارع الممنوع عليها. (هو) يصيخ السمع. (هي) تدخل الغرفة. تسأله، لأي شيء يصغي بهذا الإهتمام؟. تتصور انه ينصت للإطلاقات النارية. غير أن الأمر ليس كذلك. هنا لا أحد يصغي لصوت الاطلاقات النارية. كلا إنها ظاهرة أكثر فرادة: شبان يتنزهون مع هبوط الليل ويضحكون. يقول لها، هذه المرة الأولى التي يسمع فيها ضحكا منذ أن وصل قبل خمسة أشهر، عشية الحرب.

٤-

شيئا فشيئا صارت لحضورها بصمات متعددة. عادات أخذت ترسم مسار يومها. أولى هذه العادات هي أن تسبح كل صباح في مسبح الدار. كل شيء هادئ. صوت اطلاقات نارية يُسمع. حفيف سعف في الحديقة المجاورة. نخلة تشبه ميموزا هائلة بسعفات تحمل عذوقا كبيرة وتمرا جافا، يوشوش حين تتشاجر على السعفات الطيور. الحدائقي زرع زهورا لم يكن مرتاحا لها. كان قد أهمل الحديقة خلال الحرب، لم يستطع سقيها بإنتظام، والآن يتشكى من هيئة المرجة المبعثرة ومن شكل الشجيرات المصفرة. (هي) ترى الحديقة جميلة، غير أن الفنانين لا يقنعون بما تصنع أيديهم. الحدائقي يعدها بأن الحديقة ستعود إلى ما كانت عليه خلال مدة عام، إذا ما بقيت (هي) هنا. سيصنع منها أجمل حدائق بغداد بمرجة كثيرة الخضرة. الجَنْبات ستُشذّب وتنمو ورود لا يمكن رؤية مثيلها خارج هذا المكان.

هي تعاود السباحة. تجتهد بإداء عدد محدد من الأمتار رواحا ومجيئا حتى لتستغرق بالتمرين، إذ لا يمكنها الذهاب إلى أي مكان. تلتزم بهذا التمرين يوميا مثل سجين يجبر نفسه على إتباع حركات جمناستيكية حتى تنتظم حركة جسمه.

حولها يبدو كل شيء هادئا. نوى التمر الجاف يوشوش في العذوق بفعل الريح. سعف النخلة يلامس أعلى الجدار. تسمع (صلية) نارية في البعيد. تظن أنها وحيدة تماما، ولكن ذلك وهم، فهي ليست لوحدها أبدا. تعرف أن أحد الحراس قد صعد على السطح، يحمل الكلاشنكوف، وهو يراقب السطوح المجاورة فيما هي تسبح.

٥-

تستكشف المنزل. لصق غرفتهما هنالك غرفة بستائر مغلقة دائماً، تطفو فيها رائحة نفتالين حادة. مروحة سقفية تدور ببطء وبشكل دائم. خزانات ودواليب تحتل الجدران الثلاثة. تستند إلى الجدار الرابع مائدة تعود لأصحاب المنزل تسع بسهولة لعشرين ضيفا، والآن لا يحيطها سوى ركام لكراسٍ غير متجانسة. لديها شعور انها تتطفل وهي تعثر على أشياء صغيرة نسيها المؤجرون السابقون. تجد مدافئ كهربائية مرصوفة الواحدة فوق الأخرى في أحدى الزوايا مثل قطيع غنم. تعدها. ثمانية عشر وتستنتج انها ستشعر بالبرد هذا الشتاء.

على المائدة، وُضعتْ ثريا كبيرة من الكريستال، من أي سقف إنتزعت؟ وتلقي نظرة على صدريتيهما المانعتين للرصاص.

٦-

صمت يطبق فجأة، لا تتعرف على طبيعته وهذا الصمت يبدو مُهدداً: خرير الحياة العادية توقف، ما الذي يحدث؟

تتوقع صوت انفجار أو أن تهتز الأرض. ثم تعزف المراوح نوتاتها الأربع الحزينة.

تدرك أن التيار الكهربائي توقف. قد يستمر هذا الإنقطاع دقيقة أو ثلاث ساعات، ويحدث مرات عديدة في اليوم. الحرّ الذي لم يترك المكان عاد فورا. لم يغادر الحرّ إلى مكان بعيد، إلتجأ إلى الجدران بإنتظار أن تتوقف المبردات ليحتل المكان. لا يبدو ذلك لها مزعجا للوهلة الأولى. ذلك لأن هواء المبردات يشعرها أحيانا بالبرد. ولكنها تحس شيئا فشيئا بإرهاق لا تعرف سرّه. وهن في العزيمة يهيمن عليها ورائحتها تصعد حتى منخريها. ثم تتصاعد ضجة المولدات في الخارج مثل شاحنة تنطلق تحت النافذة. مصباح منسيّ يأتلق. المبردات تعود للعمل بضوضاء منفاخ. تشعر بالراحة للبرودة وهي تطرد الحرّ الدخيل. وفي الوقت نفسه تغتاظ لصخب المبردات، الذي يشبه ضجة مشغل أو معمل. هل يعيشان حقا في هذا الصخب؟.

خارج الغرفة، قرب المولدات، الوضع أسوأ وأكثر مشقة بالنسبة للحراس الذين يظلون لساعات في الحرّ وفي الضجة التي تصم الآذان، بقع غامقة كبيرة تمتد على قماش قمصانهم.

تعود الكهرباء للمدينة، نزقة، غير متوقعة. المولدات تتوقف. الحراس يغيرون موضع أسلحتهم ويطردون الذباب بيدهم الطليقة، بحركة ضجرة. تبتعد عن النافذة وهي تتساءل ما إذا أحسوا انها تنظر اليهم عبر الستائر.

اقامه اتحاد ديوان الشرق -الغرب

عروض متميزة في مهرجان الفيلم الألماني

متابعة / المدى الثقافي

بانعقاد مهرجان الافلام الألمانية الأول للمدة من ١٥. ١٨ أيلول الجاري، يكون اتحاد ديوان الشرق الغرب قد اضاف إلى نشاطاته في غير مجال ثقافي وفني، نشاطا يسهم بلا شك في إشاعة وعي وذوق سينمائيين من شأنهما دعم النهوض بواقع السينما العراقية التي ما زالت رغم محاولات هنا وهناك، ان تؤسس لانطلاقة جديدة.

وتأتي أهمية هذا المهرجان في توفيره الفرصة للمشاهد العراقي في الإطلاع على واحدة من اهم المدارس السينمائية التي تتميز بعراقتها واغنائها للنتاج السينمائي العالمي بأسلوبهما المتفرد.

هناك أكثر من سبب يدعونا لأن نعلن نجاح هذه الفعالية، التي جاءت متزامنة مع هستيريا الموت المجاني الذي يتاجر به الظلاميون.. ولعل احد هذه الأسباب ما اشارت إليه الشاعرة أمل الجبوري رئيسة مجلس إدارة اتحاد ديوان الشرق الغرب التي قالت انه ربما يقف احد ويهمس معاتباً، لماذا السينما ولماذا الباليه أو الموسيقى.. نقول ان شعب العراق ليس اقل حساسية من شعب سراييفو في تعاطيه مع الجمال والمحنة.. فالعراقيون يقولون: نعم للحياة ولن يثني مسيرتهم هذا الموت المجاني.

حفل الافتتاح الذي حضره حشد من الشخصيات الرسمية والثقافية والإعلامية وجمهور اضطر للحضور مشياً على الاقدام مسافات ربما تكون مفخخة، للتواصل مع هذه الفعالية المهمة.. وقد استهل الافتتاح بعرض باليه يحمل عنوان (المدينة المسحورة) قدمته فرقة دار ثقافة الأطفال، وكان اختيار مسرح الرشيد لتقديم الباليه تحدياً للحرب التي خربت هذا المسرح لتسهم بأحيائه على إيقاع الراقصين والراقصات.

وتضمن المهرجان عرض ثمانية أفلام هي: (الراكب من دون تذكرة)، (يمكننا ان نكون صارمين)، (ليا)، (زائد ناقص صفر)، (القمر البرتقالي)، (البلد الساكن)، (فتاة الغابة السوداء)، (قوانين كرة القدم)، علق عليها عدد من النقاد والمخرجين العراقيين: د. فارس مهدي، شذى سالم، د.عواطف نعيم، علاء المفرجي، عبد الهادي مبارك، د.عبد القادر الدليمي، د.صفاء صنكور، د.حمودي جاسم.

في اليوم الأول للمهرجان تم عرضه فيلمين الأول كان فيلم (يمكننا ان نكون صارمين) اخراج د.ن.بوك وهو من انتاج ١٩٩٣ وعلق عليه د. صفاء صنكور، وهو كوميديا سياسية عن أمين يصطحبان روسياً، فينعدم التفاهم في ما بينهم من جهة، وفي ما بينهم والعالم من جهة أخرى. وقصة الفيلم ينتظمها خيط الايمان بالحرية.. اما الفيلم الثاني فكان (الراكب بدون تذكرة) وهو من اخراج بيبي دانفكارت، وهو فيلم قصير من انتاج ١٩٩٣ وعلقت عليه الممثلة شذى سالم، وهو يتناول التفرقة العنصرية باسلوب كوميدي، حيث تبدي سيدة ألمانية عجوز برمها من المهاجرين السود والاتراك، إلى المانيا على مسمع شاب اسود يجاورها في المقعد امام الترام، إزاء لا مبالاة الركاب، فيقتص منها الشاب الزنجي بمفارقة ودودة، وكان هذا الفيلم قد حصل على احدى جوائز الاوسكار.

وفي اليوم الثاني عرض فيلم (ليا) للمخرج ايفان فيلا وهو من انتاج ١٩٩٦ وعلق عليه د.فارس مهدي.. والفيلم نظرة خرساء للعالم من خلال فتاة تعاني قسوة ذويها، حد بيعها رقيقاً، إلا انها تديم مراسلة امها الميتة.. والفيلم الآخر كان (زائد ناقص صفر) للمخرج يوري مور اسهمت بالتعليق عليه الفنانة عواطف نعيم وقد صور كريبورتاج على أسس جمالية من دون سيناريو خلال (١١) يوماً ويدور حول مهاجرة غير قانونية إلى ألمانيا وعامل فاشل.

وفي اليوم الثالث عرض فيلم (القمر البرتقالي) اخراج يواكيم ماسانيك والذي علق عليه د. عبد القادر الدليمي ويتابع مراحل حياة فتاة تنقل والدها بين المدن نتيجة عمله مهندساً ما يقلق انتماءاتها الاجتماعية، وهو ثاني انتاج تجريدي للمخرج، اما الفيلم الثاني فكان (البلد الساكن) اخراج اندريه داريزن وعلق عليه المخرج عبد الهادي مبارك وهو عن حماسة مخرج فرقة مسرحية، تتفاوت مع كسل اعضائها، الفرقة تتناظر مع الوضع السياسي السائد.

وفي اليوم الرابع عرض فيلم (فتاة الغابة السوداء) للمخرج هانش دبيه، وعلق عليه د.حمودي جاسم وهو كوميديا اجتماعية حديثة، ادار المخرج شخصياتها بحذر وهي تنتقل بين مزارع الريف وملاهي المدينة، فيما كان الفيلم الثاني (قوانين كرة القدم) للمخرج تومي ويكاند وقد علق عليه الناقد علاء المفرجي ويدور حول مراهنات المقامرين بكرة القدم، يوم كان نادي شالكة الألماني نادياً لعمال المناجم. الفيلم يستعرض انهيارات الرياضيين.

وعلى هامش المهرجان تم تكريم المبدعين الفنان كامل العزاوي والناقد السينمائي الراحل سامي محمد.

الاستعدادات لمهرجان دهوك الثقافي في مراحلها النهائية

اربيل / مكتب المدى

اعلن رئيس اتحاد الادباء الكرد –فرع دهوك– حسن سيلفاني ان الاستعدادات لاقامة مهرجان دهوك الثقافي الاول، الذي يؤمل ان تشارك فيه اكثر من ٣٠٠ شخصية ادبية وثقافية، وصلت مراحلها النهائية.

وقال سيلفاني في تصريحات صحفية ان المشاركين في المهرجان يمثلون ادباء اقليم كردستان خصوصا والعراق عموما، فضلا عن مشاركة اكثر من ٢٠٠ من الادباء والمثقفين من خارج العراق، مضيفا ان المهرجان الذي يعقد من ٢٢ ولغاية ٢٤ من ايلول الجاري سيقام برعاية محافظ دهوك السيد تمر رمضان، ويتضمن برامج عديدة خاصة بالادب الكردي بمختلف فروعه من الرواية والقصة والشعر والدراسات اللغوية والنقدية والترجمة، فضلا عن تضمنه ثلاث ليال للقراءات الشعرية التي يشارك فيها عدد من الشعراء.

واوضح سيلفاني انه تمت دعوة عدد من الشخصيات الثقافية المرموقة بصفة ضيوف في المهرجان، مشيرا الى ان مشاركة هذا العدد الكبير من الشخصيات في المهرجان والذي يعتبر الاكبر والاول من نوعه يعد انجازا مهما للثقافة الكردية.